نظرات في اصلاح الريف

للأستاذ عبد الرزاق الهلالي

{ ١٤٣ صفحة . مطابع دار الكشاف بيروت – الطبعة الثالثة }

بقلم : علي محمد سرطاوي

هذا كتاب الموسم في العراق ، تلقته النفوس المؤمنة الظمأى الى الاصلاح الاجتماعي باللهفة والغبطة ، كما يتلقى الثرى المكدود الجاف قطرات الغيث تهطل من جفون الغيوم ، فاعيد طبعه ، ولما تمض على طبعته الاولى غير بضعة شهور ، فكان ذلك تقديراً بليغا ، صامتا لرسالة الكتاب .

ومؤلف هذا السفر النفيس ، شاب في طليعة شباب العراق ارومة وثقافة وتفانيا في خدمة الهدف المجيد ، طوف في الشرق والغرب ، فأفاد من ذلك تجارب لها قيمتها وأثرها في صقل مواهبه ، وشحذ تجاربه ، وتوجيهها التوجيه الذي ربط روحه بارواح الملايين المعذبة من ابناء جنسه ، وغدا كالقلم حساساً ، فراحت تنعكس عليه اطياف من تلك المعاني التي تقشعر من هولها الابدان ، مجسمة لأولئك التعساء في مظاهر الجوع والمرض والجهل في ريف الرافدين ، فكان هذا الكتاب تعبيراً صادقا عن هذه المعاني . درس الادب وضرب بسهم وافر فيه ، وصال فيه وجال ، ثم مد بصره الى آفاق القانون فحلق فيها باجنحة النسور ، ثم راح يتدرج في الخدمة العامة من التدريس الى التوجيه في وزارة المعارف ، فالى ادارة نقابات العمال في مديرية العمل والضمان الاجتماعي ، ثم القى عصا المسير في نهاية المطاف في البلاط الملكي العامر ، مساعداً لرئيس التشريفات .

والمعذبون في ريف العراق هم اولئك الفلاحون الذين يؤلفون سبعة وثمانين في المائة من مجموع السكان ، يتضورون جوعا على مدار السنة ، ويتحركون على الارض التي يسخرون على زرعها ، حفاة ، عراة ، مرضى ، كما تتحرك الانعام التي لا تملك من امر نفسها شيئاً ، وانما يملك امرها ، صاحب الارض ، ذلك الراعي الذي يذبحها اذا شاء ويجيعها اذا اراد ، ويبيعها متى احب .

ومن دواعي الاغتباط العميق ، والامل الباسم ، ان يبعث الله الى الظلام الحالك المطبق على دنيا هؤلاء المعذبين ، اقباسا من نور رحمته ، تشرق عليهم من قلوب طبقة من الشباب المتزن المؤمن بربه وعظمة امته ، لا يعيش على هامش الحياة ، في تلك الابراج العاجية السخيفة التي لا يلجأ اليها الا المأفونون والجبناء الذين لا يصلحون للحياة ولا تشعر بوجودهم فيها . وانما يتحركون في صميم الحياة ، ويجاهدون ويمدون ايديهم لانقاذ الملايين من انفس مواطنيهم التي يدفعها الجوع والمرض والجهل الى التهافت على الفضلات التي تصل الى افواههم من حضارة الغرب ، يحولون بين اولئك المواطنين وبين الجري وراء الاوهام الخادعة من سراب المبادىء الهدامة ، الذي يتراءى لاعينهم في بيداء عذاب الحياة ماء وما هو بالماء ، وانما هو لعاب الشيطان تنشره زبانية الجحيم على اجنحتها في الفضاء ، فيتهافت عليه المخدوعون الظامئون .

***

واصدرت المطابع الغربية كتبا كثيرة تحدثت عن الجوع في الشرق الاوسط ، وما قد يجره هذا الجوع من الكوارث على المجتمع الذي يعيش في هذا الجزء من العالم ، وحذرت المسؤولين ، وانذرتهم باقتراب العاصفة ، واوصت بالقيام باصلاح سريع شامل ، يتناول الحياة وكل ما يضطرم فيها من سوء .

ومن هذه الكتب ، الكتاب الذي الفته المس {ورنر} الانجليزية ونشره معهد العلاقات الدولية في انجلترا تحت عنوان {الارض والفقر في الشرق الاوسط} وهو دراسة مركزة دقيقة ، شاملة لجميع مشاكل الفلاحين في مصر وفلسطين ، ولبنان وسوريا ، والعراق ، وشرق الاردن ، قالت فيه عن مصر : ان العلاقات التي تربط الانسان بالحيوان عن طريق الرحمة الانسانية لا وجود لها بين مالك الارض والفلاح هناك ، وحذرت من انفجار اجتماعي مفاجىء ، قد يعصف بالحياة عصفا شديداً لا رحمة فيه ولا هوادة . واوصلتها دراستها

العميقة الى وجود مليونين من الجائعين على مدار السنة في مصر ، يجب نقلهم الى العراق للعمل في الزراعة ، بحكم التشابه بين المناخين ، وبحكم صلات القرابة واللغة والدين بين الشعبين ، ولكنهالم تحبذذلك لأنهاترى ان الفلاح العراقي يئن من ظلم اشد هولا وارجأت هذا العمل الى مابعد الاصلاح الاجتماعي الشامل الذي اقترحت ان يتم سريعاً في العراق .

وزعمت في ذلك الكتاب ان الافرنسيين في سوريا ، والانجليز في العراق ومصر وفلسطين ، كم اخلصوا النية وصمموا على انصاف الطبقات المظلومة ، ولكن الطبقة الاستقراطية التي ورثت النفوذ من الماضي كانت تحول بينها وبين ذلك الانصاف ، حين كانت تحرض الجماهير غير الواعية عليها تحريضاً عنيفاً دامياً . فكانت سلطات الانتداب مضطرة الى مهادنة هذه الطبقات المحرضة او افساح المجال لها تعبث بتلك الجماهير ، وتسومها سوء العذاب ، حبا في استتباب الامن ، وخلوداً الى الاستقرار والصورة التي رسمتها المس {ورثر} لشقاء الفلاحين ، مشوشة غامضة تبعدعن الواقع كثيراً اذا ما قارناها بالصورة الدقيقة التي رسمها الاستاذ الهلالي لهؤلاء الفلاحين ، ومردذلك الى ان صاحب البيت ادرى بما في بيته من الغريب .

ونحن حين نتحدث عن الفلاح العراقي ، انما نتحدث عن الفلاح في كل جزء من البلاد العربية ، قد وجد الالم المشترك بين قلوب هؤلاء المنكوبين ، على بعد الدار ، ونأي المزار ؛ فكان الحديث عن أية جماعة منهم في اي مكان من الوطن العربي الكبير ، انما هو الحديث عنهم جميعا

***

العراق قطر زراعي مساحته « ٤٣٥ » الف كيلو متر مربع ، وعدد سكانه خمسة ملايين تقريبا ، وقد كان هذا العدد من العباسيين يزيد على اربعين مليونا . والارض الصالحة للزراعة في الوقت الحاضر [٩٢] الف كيلو متر مربع ، لايزرع منها غير خمسها .

وتقسم الارض الزراعية الى منطقتين : شمالية وهي الارض التي تعتمد على الامطار في زراعتها ، ومساحتها « ٤١ » الف كيلو متر مربع . وجنوبية وهي التي تعتمد على مياه الانهار ومساحتها « ٥١ » الف كيلو متر مربع .

ويتألف سكان العراق من البدو الرحل وعددهم ثمانية في المائة ، وسكان المدن وعددهم اثنان وعشرون في المائة وسكان الارياف وعددهم سبعون في المائة .

وتؤلف القرية في منطقة الامطار الشمالية الوحدة الاجتماعية ، وكان الفلاح على وجه العموم يتمتع فيها بملكية صغيرة ، وشبه استقلال ، ولكن مرور الزمن ، جعل {المختار} او « الاغا » مستبداً ، فاعتدى على الفلاحين ، واستولى على اراضيهم ، وسكتت السلطات ، وغضت الطرف ، حتى غدا الفلاح عاملا مأجورا للاغوات .

اما في الجنوب فتتألف الوحدة الاجتماعية من القبيلة ، تمتعت منذ زمن موغل في القدم بحق سكنى اراض واسعة يطلق عليها اسم « الديرة » وزعت الاراضي فيها على الرؤساء والمشايخ ، وغدا افراد القبيلة مزارعين عندهؤلاء لايملكون شيئا .

وهذا النوع من الملكية في المنطقتين ، ليس الا لوناً من الوان الاقطاع البغيض ، يجعل لفريق من ابناء الامة ، سلطاناً على ارض الوطن وابنائه مرتكزا على حق الوراثة او حق الغزو ، او حق للعصيان ، وسلطان من هذا النوع لايستمد قوته من ارادة الامة ولا يوافق مصالحها ، ويجب القضاء عليه .

وطبقة الفلاحين لاتتناول مايكفيها من الاغذية المكونة للطاقة الحرارية ، او المكسبة للمناعة ، فهي في شبه جوع دائم ؛ ويمكن القول ان ثمانين في المائة من السكان لاتتوفر في اغذيتهم المواد التي يحتاج اليها الجسم .

وسوء التغذية يجعل الجسم ، عرضة للامراض الفتاكة التي يشكو منها الفلاح العراقي ، كالملاريا ، والبلهارزيا ، والانكلستوما ، والزحار ، والسل ، والزهري ، والتراخوما

وعدد الاطباء في العراق « ٨٢٦ » يتركز في بغداد منهم « ٥١٧ » طبيبا ، ويبقى لالوية العراق الاخرى

البالغ عددها ثلاثة عشر لواء { ٢٩٩ } طبيباً ومن تحصيل الحاصل ان يزعم انسان ان في مقدور هذا العدد الضئيل مكافحة تلك الامراض الفتاكة .

والمياه النقية والكهرباء بعيدة عن ثمانية وثمانين قصبة وقرية يتراوح عدد السكان في كل منها بين الف والفين .

اما التعليم في الريف فلا يزال في مراحله الاولى ، اذ تبلغ نسبة الاميين في العراق ٩٢ ٪ واكثرهم يعيشون في الريف . والجهود التي بذلت لنشر التعليم هناك تتضاءل اذا قورنت بما يبذل في سبيل التعليم في المدن ومراكز الاقضية ومرد ذلك الى عدم وجود سياسة تعليمية ثابتة خاصة لنشر التعليم بين ابناء الريف ، وموقف بعض الشيوخ ورؤساء العشائر ، ومقاومتهم رسالة المدرسة والمعلم ، لشديد رغبتها في بقاء الناس فيما هم عليه من جهل وتأخر .

يقول بول منرو في تقريره عن اصلاح المعارف في العراق « والمشكلة التي تستوجب اهتمامنا هي مشكلة القرية الزراعية ان منهج المدارس المعمول به في الوقت الحاضر ، منهج مدني يتظمن على الاكثر دروس اللغات بصورة مشددة ، وهو مالا تحتاج اليه الحياة الريفية . وليس منهج المدرسة محشواً بافراط فحسب ، بل انه لم يؤسس على اسس رشيده ، فانه لا يتلائم والاحتياجات الريفية »

ومعلم القرية يعاني من مشاكل العيش ما لا تجده امثاله في غير الارياف ، فوسائل الراحة مفقودة ، ذلك الى جانب ما يجده من مقاومة الشيوخ والرؤساء الاقطاعيين ، كتهديد حياته ، ونهب امواله .

والذي يحول بين الفلاح وبين تعليم اولاده ، اضطراره الى التنقل من مكان الى آخر ، جريا وراء الرغيف ، غير مستقر في مكان لانه لا يملك ارضا يستقر عليها .

ففي الريف العراقي « ٤٤٩ » مدرسة للبنين عدد طلابها [٣٢١٢٨] ، وعدد معلميها [١٤٨٩] ، وفي ذلك الريف ايضا للبنات مدارس عددها [٢٤] مدرسة وطالباتها [١٤٠٨] ومعلماتها [٧٩] معلمة .

ويبلغ عدد المدارس في المدن للطلاب والطالبات [٣٩١] مدرسة وعدد الطلاب والطالبات [٧٨١١٨] وعدد المعلمين والمعلمات « ٣٠٣٠ » واذا القينا نظرة دقيقة على هذه الارقام وجدنا ان مدارس القرى تزيد في عددها عن مدارس المدن بمقدار { ٨٢ } مدرسة ، ووجدنا ان طلاب المدن وطالباتها يزيدون على القرى بمقدار { ٣٤٤٨٢ } وان زيادة المعلمين والمعلمات تبلغ { ١٥١٧ } ايضا .

ونخلص من هذه المقارنة الى نتيجة تهز مشاعرنا هزاً عنيفا ، ذلك اننا نجد ان سبعين في المائة من السكان الذين يعيشون في الريف ، لا يقام لهم وزن ، ويعطي الاهتمام في التعليم لمن يعيشون في المدن وعددهم ٢٢ ٪ من مجموع السكان وذلك يستدعي من المسؤولين تبديل نظرهم الى التعليم الريفي واعطائه ما يستحق من الاهتمام لان الفلاحين يؤلفون هيكل الامة العظمي ، ولا حياة لجسد هيكله العظمي غير سليم .

ومساكن الريف تتألف من بيوت صغيرة مبنية من القصب او اللبن ، او الطين بغير ترتيب ، فهي ضيقة لا يدخلها النور والهواء ، يعيش فيها الانسان جنبا الى جنب مع الحيوان طرقها معوجة ، تكثر فيها الحفر واكوام الاوساخ والبرك التي تنتشر منها الروائح الكريهة ، وعلى الرغم من سعة الارض في العراق ، فانها متلاصقة ، دون نظام ، خالية من المرافق العامة .

وحالة العمال الذين يعيشون في المدن وضواحيها لا تقل في سوئها عن الريف . فان الزائر الذي يزور بغداد ويعرج على محلة { الشيخ عمر } و { باب الشيخ } و { العاصمة } ، ووراء سدة { ناظم باشا } وغيرها من الجهات ، يؤسف اشد الاسف ، ان يرى هذه الالوف العديدة من ابناء البلاد يعيشون ضمن حدود امانة العاصمة ، على هذا الوضع المسيء ، وما يصدق على بغداد يصدق على المدن الاخرى في العراق .

وحاول المسؤولون تشييد قرى تتوفر الوسائل الصحية في بيوتها ، فصدر عام ١٩٢٦ القانون رقم { ٧٠ } ولكنه بقي حبراً على ورق ، ولو نفذ لكانت الان في العراق قرى صحية نموذجية تليق بكرامة الانسان .

{ يتبع } — علي محمد سرطاوي